نظرة الإسلام إلى الفقر

أ ـ الإسلام ينكر النظرة التقديسية للفقر:

ينكر الإسلام على الطائفة الأولى نظرتها إلى الفقر بصفة خاصة، وإلى الحياة الطيبة بصفة عامة. وينكر على المتصوفين قبولهم للأفكار التي وفدت على المسلمين من المانوية الفارسية، والصوفية الهندية، والرهبانية النصرانية، وما شابهها من النِّحل المتطرفة وليس في مدح الفقر آية واحدة من كتاب الله، ولا حديث واحد يصح عن رسول الله ﷺ.

والأحاديث الواردة في مدح الزهد فى الدنيا لا تعني مدح الفقر، فإن الزهد يقتضي ملك شيء يزهد فيه. فالزاهد حقًا من ملك الدنيا فجعلها في يده ولم يجعلها في قلبه.

والإسلام يجعل الغنى نعمة يمتن الله بها، ويطالب بشكرها، ويجعل الفقر مشكلة بل مصيبة يستعاذ بالله منها، ويضع مختلف الوسائل لعلاجها.

وحسنًا أن نذكر هنا أن الله امتن على رسوله بالغنى فقال: ﴿ **وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ** ﴾ [الضحى:٨]، وجعل إيتاء المال من عاجل مثوبته تعالى لعباده المؤمنين: ﴿ **فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا** ﴾ [نوح: ١٠-١٢]، وقال ﷺ: «**نعم المال الصالح للمرء الصالح**»(١).

وقال تعالى لرسوله في شأن أسرى بدر: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ** ﴾ [الأنفال: ٧٠] فجعل تعويضهم عما خسروا من مال، جزاء لما يعلم في قلوبهم من خير وبر.

---

(١) رواه أحمد في المسند (١٧٠٩٦) عن عمرو بن العاص، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورواه البخاري في الأدب المفرد (٢٩٩) وابن حبان في الزكاة (٣٢١٠) والبيهقي في الشعب (٢/ ٩١).

والأحاديث النبوية تعتبر الفقر آفة خطيرة يخشى سوء أثرها على الفرد وعلى المجتمع معًا؛ على العقيدة والإيمان، وعلى الخلق والسلوك، وعلى الفكر والثقافة وعلى الأسرة والأمة جميعًا. كما سيأتي.

• الفقر خطر على العقيدة:

فلا شك أن الفقر من أخطر الآفات على العقيدة الدينية؛ وبخاصة الفقر المدقع الذي بجانبه ثراء فاحش، وبالأخص إذا كان الفقير هو الساعي الكادح، والمترف هو المتبطل القاعد.

الفقر حينئذ مدعاة للشك في حكمة التنظيم الإلهي للكون، وللارتياب في عدالة التوزيع الإلهي للرزق، ومثل هذا هو الذي جعل شاعرًا قديمًا يقول:

كم عالم عالم أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقًا

هذا الذي ترك الألباب حائرة وصير العالم النحرير زنديقًا

فإذا لم يُؤد الأمر إلى مثل هذا الضلال البعيد.. أدى إلى نظرة جبرية قائمة على نحو ما قال القائل:

الرزق كالغيث بين الناس منقسم هذا غريق وهذا يشتهي المطرا

يسعى القوي فلا ينال بسعيه حظا، ويحظى عاجز ومهين

هذا الانحراف العقدي الذي نشأ من الفقر: الناشيء من سوء التوزيع؛ هو الذي جعل بعض السلف يقول: إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر: خذني معك! وقال ذو النون المصري الصوفي: أكفر الناس ذو فاقة لا صبر له، وقَلَّ في الناس الصابر![1]

فلا عجب أن يُروى عن رسول الله ﷺ: **«كاد الفقر أن يكون كفرًا»**[2].

---

(١) راجع هذه الأقوال في كتاب (إحياء علوم الدين) لحجة الإسلام: الغزالي، كتاب (الفقر والزهد) من ربع المنجيات (٤/ ١٨٩).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٢٦٧) وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٥٣)عن أنس، وقال الحافظ العراقي: أخرجه أبو مسلم الكشي، والبيهقي في الشعب، من رواية يزيد الرقاشي عن أنس، ويزيد ضعيف. ورواه الطبراني في الأوسط من وجه آخر بلفظ: " كادت الحاجة أن تكون كفرا" وفيه ضعف أيضا (٣/ ١٨٧) وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٤١٤٨).

ولا عجب أن يستعيذ بالله من شر الفقر مقترنًا بالكفر في سياق واحد، وذلك حيث يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر**»[(١)] ويقول: «**اللهم إني أعوذ بك من الفقر والقلة والذلة، وأعوذ بك من أن أَظْلِم أو أُظْلَم**»[(٢)].

• الفقر خطر على الأخلاق والسلوك:

وإذا كان الفقر خطرًا على الدين باعتباره عقيدة وإيمانًا، فليس بأقلّ خطورة عليه باعتباره خلقًا وسلوكًا، فإن الفقير المحروم كثيرًا ما يدفعه بؤسه وحرمانه ـ وخاصة إذا كان إلى جواره الطاعمون الناعمون ـ إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قالوا: صوت المعدة أقوى من صوت الضمير. وشرٌّ من هذا أن يُؤدي ذلك الحرمان إلى التشكك في القيم الأخلاقية نفسها، وعدالة مقاييسها كما أدى إلي التشكك في القيم الدينية.

وقد بيَّن النبي ﷺ شدة وطأة الفقر على صاحبه وأثره في سلوكه: «**خذوا العطاء ما دام عطاء، فإذا صار رشوة على الدين فلا تأخذوه، ولستم بتاركيه، تمنعكم الحاجة والفقر**»[(٣)].

وفي بيان أثر الدين على المستدين. قال: «**إن الرجل إذا غرم – استدان – حدث فكذب، ووعد فأخلف**»[(٤)] وفي إشارة إلى علاقة الفقر والغنى بالفضائل والرذائل ذكر حديث الرجل الذي تصدق بالليل على رجل فصادفت صدقته سارقا، فتحدث الناس بذلك، ثم تصدق مرة أخرى على امرأة فصادفت صدقته زانية. فأصبح

---

(١) رواه أحمد في المسند (٢٠٣٨١) عن أبي بكرة، وقال مخرّجوه: إسناده قوي على شرط مسلم، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٠) والنسائي في الصلاة (١٣٤٧) وابن خزيمة في صحيحه كتاب الصلاة (١/٣٦٧) وابن حبان في صحيحه كتاب الرقائق (٣/٣٠٣).

(٢) رواه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٤٢) وأبو داود في سجود القرآن (١٥٤٤) والنسائي في الاستعاذة (٥٤٦٠) عن أبي هريرة.

(٣) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٩٠) عن معاذ، وفي الصغير (٢/ ٤٢) وأبو نعيم في الحلية (٥/ ١٦٥) وقال الهيثمي: رواه الطبراني، ويزيد بن مرثد لم يسمع معاذ، والوضين بن عطاء وثقه ابن حبان وغيره، وبقية رجاله ثقات (٥/ ٤٢٨).

(٤) متفق عليه: رواه البخاري في الأذان (٨٣٢) ومسلم في المساجد (٥٨٩) وأحمد في المسند (٢٤٥٧٨) وأبو داود في الصلاة (٨٨٠) والنسائي في «المجتبى» كتاب السهو (١٣٠٩) عن عائشة.

الناس يتحدثون بذلك، تصدق الليلة على زانيــة، فجاءه في المنام من قال له: «أما صدقتك على ســارق، فلعله أن يستعف عن سرقــته، وأما صدقتك على زانـية فلعلها أن تستـعف عن زناها»[1] فظهـر بهذا أثر الغنى فـي استـعفـاف الرجل عن السرقـة، واستعفاف المرأة عن الفاحشة»[2].

• الفقر خطر على الفكر الإنساني:

وليس بلاء الفقر وخطره مقـصورًا على الجانب الروحي والخلقي للإنسان، وإنما يشمل أيضًا الجانب الفكري منــه، فالفقير الذي لايجد ضرورات الحيــاة وحاجاتها لنفسه وأهله وولده، كـيف يستطيع أن يفكر تفكيرًا دقيقًا، ولاسـيما إذا كان هناك بجـواره من تَغُصُّ داره بالخيـرات، وتموج خـزائنه بالذهب. وقد رووا عن الإمـام محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنـيفة أن الجارية أخبرته يومًا في مجلسه، أن الدقيق نفد، فـقال لها: «قاتلك الله، لقد أضـعت من رأسي أربعين مسألة من مسائل الفقه»، ويُروى عن الإمام الأعظم أبي حنيـفة أنه قال: «لا تستشر من ليس في بيتـه دقيق» أي لأنه مشـتت الفكر. مشغــول البال، فلا يكون حكمــه سديدًا. وذلك أن الانفعــال الحاد يؤثر على ســلامة الإدراك وصحــة الرأي كمــا يقرر علم النفس، وكما جاء بــه الحديث الصحيح: «**لايقضين حكم بين اثنين وهو غـضبان**»[3] وقاس الفقهــاء على الغضب شدة الجوع وشدة العطش، وغيـرهما من الانفعالات المؤثرة ـ وفي نحو هذا قال الشاعر:

إذا قل مــــال المرء قل بـهـــاؤه ... وضـــاقت عليه أرضــه وسـمـــاؤه

وأصــــبح لا يدري وإن كـــان داريًا ... أقــــدامــــه خــيـــــر له أم وراؤه

---

(١) متـفق عليه: رواه البخاري في الزكـاة (١٤٢١) ومسلم في الزكاة (١٠٢٢) وأحـمد في المسند (٨٦٠٢) والنسائي في المجتبى كتاب الزكاة (٢٥٢٣) عن أبي هريرة.

(٢) انظر بحث (هل للرذائل أسباب اقتـصادية؟) من كتـاب: (الإسلام والأوضاع الاقـتصـادية) للشيخ محمد الغزالي

(٣) رواه البخـاري في الأحكام (٧١٥٨) ومسلم في الأقـضية (١٧١٧) وابن مـاجه في الأحكام (٢٣١٦) وأبو داود في الأقضية (٣٥٨٩) والترمذي في الأحكام (١٣٣٤) والنسـائي في «السنن الكبرى» كتاب القضاء (٥٩٤٢) وفي «المجتبى» كتاب آداب القضاة (٥٤٠٦) عن أبي بكرة.

- **الفقر خطر على الأسرة:**

والفقر خطر على الأسرة من نواح عديدة: على تكوينها، وعلى استمرارها، وعلى تماسكها، ففي تكوين الأسرة نجد الفقر مانعًا من أكبر الموانع التي تحول بين الشباب وبين الزواج وما وراءه من أعباء المهر والنفقة والاستقلال الاقتصادية، ولهذا أوصى القرآن أمثال هؤلاء أن يعتصموا بالعفاف والصبر حتى تواتيهم القدرة الاقتصادية: ﴿**وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾ [النور: ٣٣]. كما نرى بعض الفتيات وأولياءهن من يعرضون عن راغب الزواج إذا كان رقيق الحال، قليل المال. وهو داء قديم عرض له القرآن ونصح الآباء أن يعدلوا موازينهم في اختيار الرجال، ويقوموهم بالصلاح، لا بالمال وحده قال تعالى: ﴿**وَأَنكِحُوا الأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ [النور: ٣٢].

وفي استمرار الأسرة نرى ضغط الفقر ربما غلب الدوافع الأخلاقية، فَفَرَّق بين المرء وزوجته على كُرْه منه، وربما على كُره منها، وهذا أمر اعتبره القانون الإسلامي، فأجاز للقاضي تطليق المرأة من زوجها لإعساره وعجزه عن النفقة عليها، رفعًا للضرر عنها، وفقًا لقاعدة: «**لاضرر ولا ضرار**»(١).

وفي العلاقات بين أفراد الأسرة نجد الفقر كثيرًا ما يكدر صفاءها؛ بل قد يمزق أواصر المحبة بينها، بل نجد القرآن الكريم يسجل حقيقة تاريخية رهيبة: هي أن بعض الآباء قتلوا أولادهم، وفلذات أكبادهم، تحت وطأة الفقر المدقع، أو خشية الفقر المتوقع، وهو جريمة يندي لها جبين الإنسانية خجلا، ويسود لها وجه الفضيلة حزنًا فلا عجب أن أنكرها القرآن أشد الإنكار، وحذّر منها أبلغ التحذير، فقال تعالى: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي سورة أخرى قال سبحانه: ﴿ **وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ**

---

(١) رواه أحمد (٢٨٦٥) عن ابن عباس، وقال مخرّجوه: إسناده حسن، وابن ماجه في الأحكام (٢٣٤١) والطبراني في الكبير (١١/٢٢٨) وفي الأوسط (٤/١٢٨) ورواه ابن ماجه في الأحكام (٢٣٤٠) عن عبادة بن الصامت.

﴿قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٣١]. والإملاق: هو الفقر. وإنما قال في الآية الأولى ﴿مِنْ إِمْلاقٍ﴾ للدلالة على أن الفقر حاصل فعلا. وقال في الآية الثانية ﴿خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ للدلالة على أن الفقر هنا مخوف وليس واقعًا بالفعل[1]. وسواء أكان الفقر واقعًا أم مخوفًا، لا يجوز أن يكون سببًا لاقتراف تلك الجريمة النكراء وهذا الخطأ الكبير الذى جعله النبي ﷺ بعد الشرك الأكبر.

فقد سئل الرسول ﷺ: أي الذنب أعظم؟ قال: «**أن تجعل لله ندا وهو خلقك**». **قال: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»**[2].

والإسلام بهذا يعترف بأثر العوامل الاقتصادية في السلوك البشرى، حتى أنها لتطغى في بعض الأحيان، وعند بعض البشر ـ للأسف ـ على الدوافع الفطرية الأصيلة، كعاطفة الأبوة. لكن هؤلاء الشواذ ليسوا مقياسًا لكل البشر في كل الأقطار، وفي مختلف الأعصار، وفي شتى الأحوال، فهناك لا شك عوامل أخرى كثيرة تحكم سلوك الناس وعلاقاتهم: عوامل نفسية، ودينية، وأخلاقية، واجتماعية؛ لها وزنها، ولها تأثيرها الواضح الفعال في كافة الناس.

والذي يهمنا هنا في بيان خطر الفقر أنه دفع بعض الناس أن يقتلوا أولادهم سفهًا بغير علم.

---

(١) نقل ابن كثير عن ابن عباس وقتادة والسدي ـ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ (الأنعام: ١٥١)ـ: هو الفقر، أي: ولا تقتلوهم من فقركم الحاصل. وقال في سورة الإسراء: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ﴾ (الإسراء: ٣١) أي: لا تقتلوهم خوفا من الفقر في الآجل، ولهذا قال هناك: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ (الإسراء: ٣١) فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله. وأما في هذه الآية؛ فلما كان الفقر حاصلا قال: (نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) (الأنعام: ١٥١) لأنه الأهم ههنا. والله أعلم. انظر: تفسير ابن كثير(٢/ ٢٥١).

(٢) رواه البخاري في التفسير (٤٧٦١) ومسلم في الإيمان (٨٦) وأبو داود في الطلاق (٢٣١٠) والترمذي في أبواب التفسير (٣١٨٢) والنسائي في «السنن الكبرى» كتاب المحاربة (٣٤٦٢) وفي «المجتبى» كتاب تحريم الدم (٤٠١٣) عن ابن مسعود.

- **الفقر خطر على المجتمع واستقراره:**

وفوق ذلك كله فالفقر خطر على أمن المجتمع وسلامته واستقرار أوضاعه. وقد رُوي عن أبي ذر أنه قال: «عجبت لمن لا يجد القوت في بيته: كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه»؟!

وقد يصبر المرء إذا كان الفقر ناشئًا عن قلة الموارد، وكثرة الناس. أما إذا نشأ عن سوء توزيع الثروة، وبغي الناس على بعض، وتَرَفِ أقلية في المجتمع على حساب الأكثرية، فهذا هو الفقر الذي يثير النفوس، ويحدث الفتن والاضطراب، ويقوض أركان المحبة والإخاء بين الناس.

وما دام في المجتمع أكواخ وقصور، وسفوح وقمم، وتخمة وفقر دم، فإن الحقد والبغضاء يوقدان في القلوب نارا تأكل الأخضر واليابس، وستتسع الشقة بين الواجدين والمحرومين. ومن هنا تتخذ المبادئ الهدامة أوكارها بين ضحايا الفقر والحرمان والضياع.

والفقر خطر أيضًا على سيادة الأمة وحريتها واستقلالها، فالبائس المحتاج لا يجد في صدره حماسة للدفاع عن وطنه، والذود عن حرمات أمته، فإن وطنه لم يطعمه من جوع ولم يؤمنه من خوف، وأمته لم تمد إليه يد العون لتنتشله من وهدة الشقاء.

إنه لا يبعد أن يضن بدمه في سبيل وطن قسا عليه وأشاح بوجهه عنه، ولماذا يكون عليه هو واجب الدفاع ولأناس غيره حق الاستمتاع؟! وكيف يدعى في غرم الوطن وينسى في غنمه؟!

وإذا تكونُ كريهةٌ أُدْعى لها … وإذا يُحاسُ الحَيْسُ يُدْعَى جُنْدُبُ؟

هذا وللفقر أخطار سيئة أخرى: على الصحة العامة؛ لما يتبعه عادة من سوء التغذية وسوء التهوية وسوء السكن.. وعلى الصحة النفسية؛ لما يلازمه عادة من الضجر والتبرم والقلق والسخط، وفي ذلك كل خطر على الإنتاج والاقتصاد.. إلى غير ذلك من الأخطار والأضرار.

ب ـ الإسلام ينير النظرة الجبرية للفقر:

وكما أنكر الإسلام على الطائفة الأولى نظرتها «التقديسية» للفقر والحرمان المادي والعذاب البدني على وجه العموم. ينكر على الطائفة الثانية نظرتها «الجبرية» للفقر، وزعمها أن قضية الفقر والغنى أمر محتوم وقدر مقسوم، لاراد له، ولا حيلة في دفعه وأن غنى الغني بمشيئة الله، وفقر الفقير بمشيئة الله، ومشيئته تعني رضاه، فليرض كل واحد بوضعه، لايطلب له تبديلاً ولا تغييرا.

إن هذه النظرة تعد حجر عثرة في سبيل أي محاولة لإصلاح الأوضاع الفاسدة أو تعديل الموازين الجائرة، أو إقامة العدالة المرجوة، والتكافل الإنساني المنشود.

وكان على الإسلام، ليتم رسالته في تحرير الإنسان من رِقّ الفقر والعوز، وإقرار حق الفرد في الحياة الحرة الكريمة، وإرساء دعائم التكافل الاجتماعي. كان عليه أن يحارب تلك الفكرة الجبرية الخاطئة. التي شاعت وأخذت طريقها إلى العقول والقلوب من زمن قديم.

ومن العجب أن يروج هذه الفكرة الأغنياء مكابرة أو خبثًا، ويتقبلها الفقراء جهلا أو انخداعًا، وينساق في تيارها بعض رجال الأديان غفلة أو نفاقًا.

جاء القرآن فوجد هذه الفكرة، فدعا الأغنياء القادرين إلى الإنفاق مِنْ رِزْقِ الله على عباد الله، وفرض في أموالهم حقاً معلومًا للسائل والمحروم. فلما احتجوا بمشيئة الله وقدره، ردّ عليهم زعمهم، ورماهم بالضلال المبين.

وفي ذلك جاء قول الله تعالى: ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾[1] [يس: ٤٧].

---

(١) قال القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿ وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين ﴾ (يس: ٤٧) قال الحسن: يعني اليهود أمروا بإطعام الفقراء. وقيل: هم المشركون، قال لهم فقراء أصحاب النبي ﷺ: أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنها لله. وذلك قوله: ﴿ وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا ﴾ [الأنعام: ١٣٦] فحرموهم، وقالوا: لو شاء الله-

وأي ضلال أبينَ من أن يقيد هؤلاء مشيئة الله بأهوائهم العمياء. فإذا شاء الله أن يطعم عاجزًا أو محتاجًا في رأيهم أنزل له من السماء خبزًا وإدامًا. أو سمنا وعسلا؟ ولو عقلوا وأنصفوا لعلموا أن الله يرزق الناس بعضهم من بعض. وأن القادر حين يقوم بكفاية العاجز إنما يكفيه بمشيئة الله.

لقد كان من أعظم المبادئ التي غرسها الإسلام أن لكل معضلة في الكون حلا. ولكل داء دواء، فإن الذي خلق الداء، خلق الدواء، والذى قدَّر المرض قدَّر العلاج. فالمرض بقدر الله، والعلاج بقدر الله، والمؤمن الصادق يدفع قدرًا بقدر. كما يدفع قدر الجوع بقدر الغذاء، ويدفع قَدَرَ العطش بقدر الشرب. ولهذا قال عمر الفاروق حين رجع بمن معه من الشام خشية الوباء وقيل له: أفِرَارًا من قدر الله يا أمير المؤمنين؟! قال: «نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله»(1)، وقبل ذلك سئل النبي ﷺ عن أدوية يتداوون بها وتقاة يتقونها؟ هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «**هي من قدر الله**»(2)

فإذا كان الفقر داء فإن الله جعل له دواء.. إذا كان قدرا من الله، فإن مقاومته والتحرر من ربقته من قدر الله أيضًا.

● معنى القناعة والرضا بما قسم الله:

أما ما جاءت به الأحاديث من حث على القناعة والرضا بما قسم الله، فليس معناها ترضية الفقراء بالعيش الدون والحياة الهون. ولا القعود عن السعي إلى

= أطعمكم - استهزاء - فلا نطعمكم حتى ترجعوا إلى ديننا، قالوا: ﴿أَنُطْعِمُ﴾ {أي أنرزق} من لو يشاء الله أطعمه {كان بلغهم من قول المسلمين: أن الرازق هو الله. فقالوا - هزءا -: أنرزق من لو يشاء الله أغناه.
وقال ابن عباس: كان بمكة زنادقة فإذا أمروا بالصدقة على المساكين قالوا: لا والله؛ أيفقره الله ونطعمه نحن! وكانوا يسمعون المؤمنين يعلقون أفعال الله تعالى بمشيئة، فيقولون: لو شاء الله لأغنى فلانا، ولو شاء الله لأعز، ولو شاء الله لكان كذا... فأخرجوا هذا الجواب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين، وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيئة الله تعالى. انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥).

(١) جزء من حديث طويل: رواه البخاري في الطب (٥٧٢٩) ومسلم في السلام (٢٢١٩) عن ابن عباس.

(٢) رواه ابن ماجه في الطب (٣٤٣٧) والترمذي في أبواب القدر (٢١٤٨) وقال: هذا حديث حسن صحيح، والحاكم في مستدركه كتاب الطب (٤/ ٤٤٦) وسكت عنه، وكذلك الذهبي، والطبراني في الكبير (٦/ ٤٧) وضعفه الألباني في ضعيف ابن ماجه (٧٤٩) عن أبي خزامة.

الغنى الحلال، والحياة الطيبة والعيش الرغيد، ولا ترك الأغنياء في سرفهم وترفهم يعبثون ويعيثون.

إن القناعة والرضا بما قسم الله لا تعني شيئًا مما ذكرنا، فإن الرسول ﷺ كان يسأل الله الغنى، كما يسأله التقى[1]، ودعا لصاحبه وخادمه أنس فكان مما قاله: «**اللهم أكثر ماله**»[2]، وأثنى على صاحبه أبي بكر الصديق فقال: «**ما نفعني مال كمال أبي بكر**»[3]. فماذا تعني القناعة إذن؟

إنها تعني أمرين:

أولهما: أن الإنسان بطبيعته شديد الطمع والحرص على الدنيا، لا يكاد يشبع منها أو يرتوي وقد صور ذلك الحديث النبوي: «**لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى ثالثًا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب**»[4].

وكان لابد للدين أن يهديه إلى الاعتدال في السعي للغنى، والإجمال في طلب الرزق، وبذلك يقيم التوازن في نفسه وفي حياته. ويمنحه السكينة التي هي سر السعادة، ويجنبه الإفراط والغلو، الذي يرهق النفس والبدن معًا. ومن ثم قال ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي: أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب**»[5].

---

(١) كما في حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ كان يقول: «أسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى». رواه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢١) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٤٨٩).

(٢) رواه البخاري في الدعوات (٦٣٨١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٨١).

(٣) رواه أحمد في المسند (٧٤٤٦) عن أبي هريرة مختصرا، وقال مخرّجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، ورواه ابن ماجه في المقدمة (٩٤) والترمذي في المناقب (٣٦٦١) وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، والنسائي في «الكبرى» كتاب المناقب (٨٠٥٦).

(٤) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٣٦) ومسلم في الزكاة (١٠٤٩) عن أنس، وأحمد في المسند (٢١١١١) والترمذي في الزهد (٢٣٣٧) عن ابن عباس.

(٥) رواه القضاعي في مسند الشهاب (٢/ ١٨٥) عن ابن مسعود، وقال الهيثمي: رواه البزار، وفيه قدامة ابن زائدة بن قدامة، ولم أجد من ترجمه، وبقية رجاله ثقات (٤/ ١٢٣) وقال العراقي: أخرجه ابن أبي الدنيا في القناعة والحاكم مع اختلاف (٣/ ١٨١) وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٦٦).

ولو ترك الإنسان يستسلم لنزعات حرصه وطمعه لأصبح خطرا على نفسه وعلى جماعته، فكان لا بد من توجيه طموحه إلى قيم أرفع. ومعان أخلد، ورزق أبقى، وذلك هو وظيفة الدين معه: ﴿ولا تمدنّ عينيك إلىٰ ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقىٰ﴾ [طه: ١٣١]، ﴿زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب (١٤) قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله﴾ [آل عمران: ١٤، ١٥].

وظيفة الإيمان هنا أن يَحدّ من سَوْرَة الحرص والطمع. وطغيان الشراهة والجشع على النفس البشرية. فلا تستبد بها. وتجعلها تحيا في قلق دائم، لا تكتفي بقليل، ولا تشبع من كثير. لا يطفئ غلة طمعها ما عندها، فتمتد عينها إلى ما عند غيرها، ولا يشبعها الحلال فيسيل لعابها إلى الحرام.. مثل هذه النفس لا ترضى ولا تستريح. إنها كجهنم ـ تلتهم الملايين في جوفها، ثم يقال لها: هل امتلأت؟ وتقول: هل من مزيد؟

وظيفة الإيمان أن يوجه النفوس إلى القيم المعنوية الخالدة. وإلى الدار الآخرة الباقية. وإلى الله الحي الذي لا يموت. ويعلم المؤمن أن الغِنَى ـ إن كان ينشد الغِنَى ـ ليس في وفرة المال. وكثرة المتاع. وإنما هو في داخل النفس أصلا، وبذلك ورد الحديث: «**ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس**»(١).

الثاني: وثاني ما تعنيه القناعة والرضا بما قسم الله: أن تفاضل الناس في الأرزاق كتفاضلهم في المواهب والملكات سُنّةٌ مطَّرِدة. اقتضتها طبيعة هذه الحياة. ووظيفة الإنسان فيها، وما منحه الله من إرادة واختيار. وما حفه به من ابتلاء واختيار.

قال تعالى: ﴿والله فضل بعضكم علىٰ بعض في الرزق﴾ [النحل: ٧١]، ﴿إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيرا بصيرا﴾ [الإسراء: ٣٠]،

(١) رواه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ومسلم في الزكاة (١٠٥١) وأحمد في المسند (٧٥٥٥) وابن ماجه في الزهد (٤١٣٧) والترمذي في أبواب الزهد (٢٣٧٣) عن أبي هريرة.

﴿ **وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم** ﴾ [الأنعام: ١٦٥] فكما أن في الناس القصير والطويل، والدميم والجميل، الغبي والذكي، والضعيف والقوي، كذلك يوجد الموسَّع له والمضيَّق عليه. هذه طبيعة الحياة وهذه سنة الله التي لم يستطع الشيوعيون أنفسهم أن يغيروها، رغم تشدقهم بالمساواة، ومحو الفوارق الاقتصادية بين الناس.

فالإسلام يريد من المسلم أن يكون واقعياً، يعترف بالحياة كما هي، ولا يعيش حياته في هم ناصب، وتعب واصب، جريًا وراء وَهْم كاذب.

الإسلام يريد من المسلم ألا يكون أكبر همه النظر إلى ما أوتيه الآخرون من نعمة، نظرة العدو المتربص الذي يأكل قلبه الحسد، ويَغْلي صدرُه بالبغضاء. وتموج نفسُه بالطمع، فإن نظرة الإنسان إلى ما أوتيه الآخرون وما حرمه هو لا يجلب عليه إلا النكد والشقاء. وأولى من ذلك أن ينظر إلى ما أوتيه هو من نعم كثيرة. وينظر إلى مَنْ دونه ممن حُرِم مثل هذه النعم، فيسعد ويرضى، ويطمئن قلبه.

فمعنى القناعة هنا أن يرضى الإنسان بما وهب الله له مما لا يستطيع تغييره، فالمرء تحكمه مواريث جسمية وعقلية ونفسية. وتحده البيئة والخبرة والظروف القاهرة. وفي حدود ما قُدِّر له يجب أن يكون نشاطه وطموحه، فلا يعيش متمنيًا ما لا يتيسر له، متطلِّعًا إلى ما وهب لغيره ولم يوهب له، وذلك كتمنِّي الشيخ أن يكون له قوة الشباب، وتَطَلُّع المرأة الدميمة إلى الحسناء في غيرة وحسد، ونظرة الشاب القصير إلى الرجل الطويل في حسرة وتلهف، وطموح البدوي الذي يعيش في أرض قفراء بطبيعتها إلى رفاهية الحياة وأسباب النعيم.

وكما حدث في عهد الرسول ﷺ مِنْ تَمَنِّي النساء أن يكون لهن ما للرجال فأنزل الله: ﴿ **ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسألوا الله من فضله** ﴾ [النساء: ٣٢][١].

---

(١) الحديث عند أحمد؛ وفيه أن أم سلمة قالت: يا رسول الله يغزو الرجال ولا نغزو، ولنا نصف الميراث؛ فأنزل الله ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾ (النساء: ٣٢). رواه أحمد في المسند =

في حالة العسر، وضيق الرزق، التي تَحلُّ بالأفراد، ولا تخلو منها حياة الناس.. وفي الأزمات الطارئة التي تحل بالأمم نتيجة حرب أو مجاعة أو نحوها، وفي البلاد والدول ـ التي تَقِل مواردها الطبيعية عن توفير الرفاهية لأهلها، ولا يهتدي كثير منهم سبيلا لتنمية رزقه أو للهجرة من بلده ـ تكون القناعة بما رزق الله هي الدواء الناجع والبلسم الشافى، وتَطَلُّعُ مثل هؤلاء الذين ذكرنا ليس طموحًا ولا علو همة. إنه طَمَعٌ في غير مطمع، وتَمَنٍّ لما لا يكون، وحرصٌ لا ثمرة له إلا الهم والحزن.

وهؤلاء في حاجة أن يعلموا ويوقنوا أن السعادة ليست في وفرة أعراض الحياة ولكنها في داخل النفس. وأولى ما يقال لهم: «**ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس**»(١) «**قد أفلح من أسلم، ورُزِق كفافًا، وقنَّعه اللهُ بما آتاه**»(٢)، و«**ما قل وكفى خير مما كثر وألهى**»(٣).

= (٢٦٧/٣٦) وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف؛ فيه انقطاع بين مجاهد وأم سلمة كما هو ظاهر في الإسناد، ورواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن (٣٠٢٢) وقال: هذا حديث مرسل، ورواه بعضهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مرسل أن أم سلمة قالت.....، ورواه الطبراني في الكبير (٢٣/٢٨٠) والبيهقي في الكبرى كتاب السير (٩/ ٢١) وقال الألباني في صحيح الترمذي صحيح الإسناد (٢١٦/ ٣).

(١) جزء من حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من يأخذ عني هؤلاء الكلمات فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن؟» فقال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله، فأخذ بيدي فعد خمسا، وقال: «اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب» رواه أحمد في المسند (٨٠٩٥) عن أبي هريرة، وقال مخرّجوه: حديث جيد، وهذا إسناد ضعيف لجهالة أبي طارق السعدي، ورواه الترمذي في الزهد (٢٣٠٥) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث جعفر ابن سليمان، والحسن لم يسمع عن أبي هريرة شيئا هكذا. ورواه الطبراني في الأوسط (٧/ ١٢٥) وأبو يعلى في مسنده (١١/ ١١٣) وحسنه الألباني في الصحيحة (٩٣٠).

(٢) رواه مسلم في الزكاة (١٠٥٤) وأحمد في المسند (٦٥٧٢) وابن ماجه في الزهد (٤١٣٨) والترمذي في أبواب الزهد (٢٣٤٨) عن عبد الله بن عمرو.

(٣) جزء من حديث أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما طلعت شمس قط إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان - يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين-: يا أيها الناس هلموا إلى ربكم؛ فإن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا آبت شمس قط؛ إلا بعث بجنبتيها ملكان يناديان - يسمعان أهل الأرض إلا الثقلين-: اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا مالا تلف». رواه أحمد في المسند (٢١٧٢١) عن أبي الدرداء، وقال مخرّجوه: إسناده حسن من أجل خليد العصري، ورواه ابن حبان في صحيحه كتاب الزكاة (٣٣٢٩) وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم، والطبراني في الأوسط (٣/١٨٩) وصححه الألباني في الصحيحة (٤٤٣).

إن الغنيَّ هو الغنيُّ بنفسه ولو أنه عاري المناكب حاف

ما كل ما فوق البسيطة كافيًا وإذا قنعت فبعض شيء كاف

إذن.. فالقناعة ألا تكون جشعًا شرهًا ولا حسودًا. ولا متطلعًا إلى ما ليس لك ولا في طاقة مثلك. وبذلك تستروح نسمات الحياة الطيبة، التي جعلها الله جزاء للمؤمنين العاملين في الدنيا ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، وقد فسَّر بعض السلف الحياة الطيبة بالقناعة[١].

جـ - الإسلام ينكر الاقتصار على الإحسان الفردي والصدقات التطوعية:

والإسلام وإن بدا موافقًا للطائفة الثالثة في دعوتها الأغنياء إلى الصدقة والإحسان في فعل الخير ومواساة الضعفاء. ومد يد المعونة والتبرع لإخوانهم الفقراء - فإنه ينكر اقتصارها على هذا الجانب التطوعي ويرى أن ترك الفقراء والضعفاء في المجتمع تحت رحمة الأغنياء، وما تجود به أيديهم، أو تفيض به عواطفهم - إن هو إلا مضيعة للفقراء والمساكين، وسائر ذوي الحاجات، وخاصة إذا قست القلوب، وضعف الإيمان، وغلب الشح والأنانية على الأنفس، وغدا المال عند أربابه أحب إليهم من الله ورسوله ومثوبته، كذلك المجتمع الجاهلي الذي خاطبه القرآن بقوله: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ١٧-٢٠]، والقصور في معالجة الفقر هنا راجع إلى طبيعة فكرة الصدقات التطوعية نفسها وفكرة الإحسان الفردي الاختياري ذاته، تلك الفكرة التي يحللها الأستاذ الدكتور إبراهيم اللبان في بحث له عن حقوق الفقراء فيقول:

«كانت فكرة الإحسان أقدم الوسائل التي استخدمتها الديانات السماوية لمعالجة مشكلة الفقر في المجتمع، وقد اعتمدت عليها الإنسانية عصورًا طويلة في مكافحة

---

(١) ذكره القرطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ (النحل: ٩٧) وقال: هو قول: الحسن البصري وزيد بن وهب ووهب بن منبه، ورواه الحكم عن عكرمة عن ابن عباس. انظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١٥٥).

مظاهر البؤس والفاقة، ومعاونة جماهير الفقراء والمساكين، ولكن هذه الفكرة على جلالتها وسموها وحسن أثرها؛ لم يكن في مقدورها أن تستأصل الفقر من جذوره، وتنهض بجميع العجزة والمعوزين إلى مستوى الحياة الإنسانية الكريمة، ويرجع هذا إلى طبيعة الفكرة نفسها، ومن ثم كان لا بد أن ندرس حقيقتها، ونعرف خصائصها ونحدد مواضع النقص والقصور فيها، ليتسنى لنا أن نضع أصابعنا على أسباب فشلها في تنقية المجتمع من شرور الفقر والفاقة.

• للواجبات في الحياة عادة وجهان:

فهي من ناحية واجب ومن الناحية الأخرى حق، فالثمن في البيع يمثل من ناحية المشترى واجبًا يجب أداؤه، ولكنه يمثل من ناحية البائع حقّاً قائمًا، له أن يتقاضاه، ويستمد هذا الحق قوته من عاملين:

العامل الأول: أن وراءه مطالبًا يطالب به ويستقضيه ولا يتركه للإهمال أو الضياع.

والثانى: أن الدولة نفسها ترى من واجبها إيصال هذا الحق إلى مستحقيه.

ونستطيع أن نقرر في ثقة واطمئنان أن العامل الأكبر في نجاح عملية التبادل هو وجود فكرة الحق إلى جانب فكرة الواجب، وأن فكرة الواجب وحدها لا يمكن أن تكفل النجاح لعملية التبادل الاقتصادى. فشعور البائع بأن الثمن حق له ومطالبته الدائمة، عنصر أساسي لنجاح هذه العملية، ولا يقل عن هذا وضوحًا أن تدخل الدولة إلى جانب صاحب الحق أمر لاغنى عنه ليصل صاحب الحق إلى حقه، ويقوم من عليه الواجب بأداء واجبه.

كانت هذه مقدمة لا غنى عنها لفهم فكرة الإحسان. فالإحسان يمثل في أغلب الأذهان واجبًا لا حقّاً، ومن ثم لم يشعر الفقير في العهد الذي سادت فيه فكرة الإحسان أن له على الغني حقاً يجب أن يطالبه به ويأخذه منه، ومن ثم استطاع الأغنياء أن يهملوا الإحسان دون أن يطالب الفقراء أو تقوم الدولة بتحصيله لهم ودفعه إليهم.

وفي فكرة الإحسان أيضًا أمور حالت دون تدخل الدولة إلى جانب الفقير، ويرجع هذا إلى أمرين هامين:

أما الأمر الأول: فهو درجة الإلزام، فإن الناس لم يشعروا إزاء الإحسان بأنه يتمتع بدرجة عالية من الإلزام ـ فقد عرف الناس منذ القدم أن الإلزام الخُلُقي وغير الخُلُقي تتفاوت درجاته، ولم يحدث أن رفعوا الإحسان إلى درجة عالية في سلم الإلزام.

ويجب أن يضاف إلى هذا أن الإحسان يخلو من الشروط الضرورية لتدخل الدولة، فالدولة يمكن أن تجبي ضريبة محدودة المقادير مبينة الشروط، ولكنها لا تستطيع أن تجبي الإحسان، لأنه خال من هذه المقومات، فليس هناك تحديد لمقاديره. ولابيان واضح دقيق لمن يجب عليه الإحسان، ومتى يجب؟

بَقِيَ الإحسان إذن مجرد واجب، وفقد ما قد كان يتمتع به من قوة لو أنه وصل إلى مرتبة الحق وعُيِّنت مقاديره، فتمكنت الدولة من جبايته وتوزيعه، وقد كان هذا الوضع من أسباب عجزه وفشله، فقد أصبح الأمر موكولا إلى الأغنياء، متروكًا لدى شعورهم بواجبهم إزاء الفقراء والمعوزين، وهو شعور يغالبه الحب الطبيعي للمال والنفور من بذله وإنفاقه. فكانت النتيجة أن انصرف الناس عن الإحسان تدريجياً، وسقط الفقير في هوة سحيقة من البؤس والعوز، دون أن يجد له من نظام المجتمع عونًا أو كافلاً.

وإجمال القول: إن الإحسان مبدأ ضعيف في ذاته، عاجز عن أن يعالج مشكلة الفقر علاجًا شافيًا، فهو من ناحية: لم يحدد المبلغ المطلوب بما يتناسب وحاجة الفقراء في المجتمع، ومن الناحية الأخرى لم يتمتع بدرجة عالية من الإلزام تكفل دوامه وانتظامه. ومن ثم كانت حصيلته ضئيلة وغير مستقرة.

وزاد الطين بلة أنه واجب فردي متروك لإرادة الفرد ومشيئته، ليس للدولة أن تتدخل في جبايته من الشعب، وإنفاقه على الفقراء والمساكين، فلم يكن ثمة ما يكفل أداءه منظمًا، ولهذا لم يلبث أن دَبَّ إليه دبيب الضعف والاضمحلال في كل المجتمعات الإنسانية»[1].

---

(١) راجع بحث الأستاذ الدكتور إبراهيم اللبان صفحة٢٤٢، ٢٤٣ من كتاب مجمع البحوث الإسلامية ـ المؤتمر الأول ـ القاهرة.

د- الإسلام ينكر النظرة الرأسمالية:

وكما ينكر الإسلام فكرة الاقتصار على الإحسان الفردي الاختياري، ينكر أيضًا اعتبار الغني هو المالك الحقيقى لماله وثروته. وهو صاحب الحق الأول والأخير فيها، يتصدق منها على من يشاء، ويبخل إن شاء، ويسرف على شهواته إن شاء كما هي نظرة الرأسمالية المطلقة. نظرة قارون الذى فضل المال كله إلى نفسه، وجحد نعمة ربه، وبغى على حق قومه. فخسف الله به وبداره الأرض:

﴿ **فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ** ﴾ [القصص: ٨١].

إن الإسلام ينكر هذه النظرة من أساسها، ويرى أن المال مال الله، هو خالقه وواهبه، وأن الغني مستخلف فيه وأمين عليه، بعبارة أخرى: هو نائب عن المالك الأصلي في رعايته وتنميته وتصريفه، وفقًا لأوامره ومرضاته. قال تعالى ﴿ **وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ** ﴾ [الحديد: ٧] وقال: ﴿ **وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ** ﴾ [النور: ٣٣]. وقال: ﴿ **أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم** ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، فالمال في يد الغنى إنما هو في الحقيقة مال الله عنده، ورزق الله لديه.

ومن هنا يوجب الله تعالى: خالق الإنسان، وخالق المال، وخالق الكون كله على الأغنياء حقًا معلومًا في أموالهم، بل في أموال الله التي آتاهم إياها واستخلفهم عليها، ولايكتفي الإسلام هنا بمجرد الوعظ والترغيب والترهيب، والدعوة إلى البذل والتصدق، فهذا وحده لايكفي إذا قست القلوب وسقمت الضمائر، وضعف الإيمان.. ولكنه يضم إلى ذلك تدخل الدولة باسم الشرع، لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء، فمن أبى أن يطيع قانون الله، قوتل على ذلك حتى ينقاد للحق طوعًا أو كرهًا.

وبهذا يجمع الإسلام بين الحسنيين: ويأخذ بكلا الوسيلتين: وسيلة الإرشاد الديني، والتوجيه الأخلاقي، ووسيلة التشريع القانوني، والإلزام الحكومي، فإن (الله يزع بالسلطان مما لا يزع بالقرآن)(١)، وهذا أفضل ما عند الطائفة الثالثة،

(١) من أقوال الخليفة الراشد عثمان بن عفان. انظر: البداية والنهاية.(٢/ ١٠).

وما انتهت إليه الطائفة الرابعة، التي ترى وجوب التدخل الحكومي، لتحقيق التأمين الاجتماعي والضمان الاجتماعي، الذي تطورت إليه الرأسمالية المعدلة، وماشابهها من الأنظمة التي تضفي على نفسها صفة الاشتراكية، وإن كانت في أساسها رأسمالية كاشتراكية الدولة مثلا.

ولكي يظل للإسلام فضله الذي لا يداني، وتفوقه الظاهر على هذه الأنظمة المستحدثة، وذلك لما توافر له من مزايا لا تجتمع في غيره:

أ- **فله مزية السبق الزمني:** فقد أقر حقوق الفقراء وضمنها، وقاتل دونها منذ أربعة عشر قرنًا، وقد قيل: الفضل للمبتدي وإن أحسن المقتدي.

ب- **وله مزية الأصالة:** فليست هذه الحقوق المفروضة والتشريعات الملزمة «ترقيعات» أدخلت عليه تحت ضغط الظروف والملابسات والثورات والحروب. بل هي مبادئ أساسية تدخل في صلب شريعته، وتعد من أركانه ومبانيه العظام.

جـ - **وله مزية الخلود والثبات:** فإن ما أدخل على نظام لظروف طارئة، قد يزول بظروف مغايرة، أما الإسلام فهو شريعة الله الباقية، وكلمته الأخيرة التي لا تقبل نسخًا ولا تبديلاً، حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

د- **وله مزية الكمال والشمول:** التي لا تتحقق إلا في نظام شرعه العليم الحكيم نظام بريء من قصور البشر الذاتي. ومن أهوائهم التي تؤثر حتماً في تقديرهم للأمور وحكمهم على الأشياء. وهذا الكمال يظهر هنا في أمرين:

أولهما: أن التأمين الاجتماعي الذي أقرته النظرية الغربية الحديثة، يقوم على أساس إعطاء المؤمَّن له من التعويضات والمساعدات بنسبة ما دفع من أقساط، طوال سنوات عمله، لا على أساس حاجياته الحقيقية التي تلح عليه، وتطالبه بإشباعها، فمن كان دفع أكثر، أعطى أكثر، ومن دفع أقل كان نصيبه أقل، مهما تكاثرت عليه الحاجات. وذوو الدخل المحدود يدفعون دائمًا أقل.

أما التأمين الاجتماعى الذي يحققه الإسلام لأبنائه، فلا يقوم على اشتراط دفع أقساط سابقة، ولا يعطى المحتاج منهم على قدر ما دفع بل على قدر ما يشبع حاجاته، ويزيل كربته، ويفرج ضائقته.

الثاني: أن الضمان الاجتماعي الغربي ما زال قاصرًا من جهتين:

الأولى: عدم شموله لكل أفراد المحتاجين.

والأخرى: قصوره عن تحقيق الكفاية التامة للفقراء والمساكين، على النحو الذي يكفله الإسلام بنظام الزكاة وغيره، كما سنفصل بعد، وإنما يكتفي بإعطائه إعانة محدودة قد تكفي وقد لاتكفي.

هـ ـ الإسلام ينكر النظرة الماركسية:

وأما الطائفة الأخيرة الذين لا يرون علاجًا لمشكلة الفقر إلا في تحطيم طبقة الأغنياء ومصادرة ما ملكوا، وتحريم مبدأ الملكية نفسه، وتأليب الطبقات الأخرى على الأغنياء، وتغذية الصراع الطبقي بوقود الحقد والعداوة حتى تنتصر الطبقات الكادحة، وتقوم دكتاتورية «البروليتاريا».

أما هؤلاء فإن الإسلام ينكر نظرتهم هذه من أساسها، لأنها تناقض مبادئه وأصوله مناقضة صريحة:

١- فإذا كان في الأغنياء أناس أطغاهم الغنى وأفسدهم المال، فجاروا على غيرهم، وأكلوا حقوق الضعفاء والفقراء، فإن هناك أغنياء آخرين شكروا نعمة المال، وأدوا حق الله وحق الناس فيه، ولايجوز في نظر الإسلام أن تعاقب طبقة بأسرها بذنب أفراد منها، فكل إنسان مسئول عن نفسه وعمن يرعاه فحسب: ﴿**كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ**﴾ [الطور: ٢١]، ﴿**وَلا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ**﴾ [الأنعام: ١٦٤] بل يقص علينا القرآن الكريم أن هذا المبدأ قد أقرته الأديان السابقة أيضًا: ﴿**أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ**﴾ [النجم: ٣٦-٣٩].

وهو مبدأ يقره كل عقل سليم، وكل شرع قويم.

٢- ثم إن الإسلام يقر مبدأ الملكية الخاصة للمال، لأن فيها إشباعًا لدافع فطري إنساني أصيل.

ونظرًا لما يترتب عليها من آثار في تقدم المجتمع، وازدهار الاقتصاد، لأنها الضمان المادي لبقاء الحرية المدنية والحرية السياسية.

أجل، إن الإسلام يحدد للتملك الفردي حدودًا ويضع له قيودًا، ليس هنا موضع تفصيلها، ولكنه بصفة عامة يحترم مبدأ الملكية ويصونه، ويحميه بقوانينه ووصاياه، ويجعله أساسًا لنظامه الاقتصادى.

واستغلال أناس لملكيتهم بغير حق، وجورهم فيها، لا يقتضي فساد مبدأ التملك ذاته، فإن الفساد في أنفس الناس، فإن صلحت أصبح المال في أيديهم أداة خير وإصلاح وفي هذا ورد الحديث الشريف: «**نعم المال الصالح للرجل الصالح**»(١).

ولهذا تتجه النظرية الإسلامية إلى إصلاح الأنفس وتربية الضمائر أولاً، ولكنها لاتكتفي بذلك ولا تقف بذلك ولا تقف عنده وحده، فتضيف إلى ذلك سلطان التشريع والتنظيم، ورقابة الدولة.

٣- هذا إلى أن الإسلام يقيم علائقه بين الأفراد والجماعات على أساس الإخاء والتعاون، ولا يقر العداوة بين الأفراد، والصراع بين الطبقات.

والإسلام يرى أن الحقد والحسد والبغضاء آفات تأكل الأعمال الصالحة كما تأكل النار الحطب، وتحلق الدين كما تحلق الموسى الشعر. وقد سماها النبى ﷺ «**داء الأمم**»(٢) دلالة على خطرها وسوء أثرها.

فإذا فسدت ذات البين فإن الإسلام يوجب على المجتمع التدخل للإصلاح وإطفاء النار، ورتق النفوس، ويجعل هذا العمل أفضل من درجة الصلاة والصيام

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جاء ذلك في حديث الزبير بن العوام، وفيه: «دب إليكم داء الأمم: الحسد والبغضاء؛ هي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين، والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أفلا أنبئكم بما يثبت ذلك لكم؟ أفشوا السلام بينكم» رواه أحمد في المسند (١٤١٢) عن الزبير، وقال مخرّجوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، ورواه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع (٢٥١٠) وقال: هذا حديث قد اختلفوا في روايته عن يحيى بن أبي كثير، فروى بعضهم عن يحيى بن أبي كثير عن يعيش بن الوليد عن مولى الزبير عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكروا فيه عن الزبير. ثم قال: هذا حديث صحيح، ورواه الطيالسي في المسند (١/ ٢٧)، وأبو يعلى في المسند (٢/ ٣٢) والبيهقي في الكبرى كتاب الشهادات (١٠/ ٢٣٢)، وقال الهيثمي: رواه البزار وإسناده جيد (٨/ ٦٤).

والصدقة. وبعد هذا مقتضى الإيمان والأخوة التى فرضها الإسلام: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومن ثم يرفض الإسلام بقوة، كل مذهب ينادي بتغذية العداوة والصراع بين الأغنياء والفقراء، أو بين الطبقات بعضها وبعض. وكيف لا والأخوة فيه صنو الإيمان، وثمرة الإسلام؟ فالمؤمنون إخوة بنص القرآن، والعباد كلهم إخوة، بنص حديث الرسول ﷺ(١).

ولقد كان عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وغيرهما من أغنياء الصحابة جنبًا إلى جنب مع أبي هريرة وأبي ذر وبلال وغيرهم من فقراء المهاجرين، لايحقد فقير على غني، ولا يستعلي غني على فقير، ضمهم الإسلام في رحابه ـ فكانوا كما أمر الله ـ إخوانًا.

٤- ثم إن الإسلام لايقبل علاج مشكلة بخلق مشكلة أخرى قد تكون أشد خطرًا من الأولى.

والشيوعيون والاشتراكيون يحاولون حل مشكلة الفقر والمشكلة الاقتصادية عامة. بخنق حرية الشعب، وفرض دكتاتورية عاتية مستبدة. تتحكم في أرزاقه وأقواته. ولا تدع فرصة لحرية العمل أو التملك أو التصرف. ومعنى هذا بعبارة أخرى: فرض عبودية عامة على الشعب كله: عبودية يصبح المواطنون معها رقيقًا. يملكهم سيد واحد. هو الجهاز الحزبي الحاكم المسيطر على الناس ببوليسه وجواسيسه وسجونه ومنافيه. والناس أمام جبروته وإرهابه مكرهون على السمع والطاعة. بل على التأييد والتصفيق، عاجزون عن قول «لم؟» فضلا عن قول «لا». إذ كيف يعارضون من يملك أقواتهم وأقوات أولادهم في قبضته، وهم لا يملكون شيئًا!

ولاعجب إذا وجدنا القرآن يقول: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ [النحل: ٧٥]

---

(١) حيث قال: «وكونوا عباد الله إخوانا....» متفق عليه: رواه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٥٥٩) وأحمد في المسند (١٢٦٩١) وأبو داود في الأدب (٤٩١٠) عن أنس.

وإنما وصف القرآن العبد المملوك بأنه: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ لأنه لا يملك شيئًا. فإن الملكية تعطي صاحبها نوعًا من القدرة على الحركة والتصرف، أما السيد الحر في نظر القرآن فهو: ﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا﴾ أي هو الذي يملك ويتصرف في ملكه بالإنفاق سرًا وجهرًا، وفق ما يوحي به ضميره وإيمانه.

٥- ومع هذا فإن الشيوعيين والاشتراكيين الماركسيين الذين صادروا حرية الشعوب، وتحكموا في مقدراتها، وأحصوا عليها أنفسها، وأمموا أملاكها ووسائل الإنتاج فيها - باسم مصلحة الشعب وسيطرة الشعب - لم تستطع مناهجهم الجديدة أن تحل مشكلة الفقر، وترفع من مستوى الفقراء على الوجه الذي كان ينشده الناس فيها أول رواجها. كل ما صنعته أنها أنزلت الأغنياء إلى مستوى الفقراء، ولم ترتفع بالفقراء إلى درجة الأغنياء.

فإذا كان تعميم الفقر، وخفض مستوى المعيشة خيرًا يسعى إليه، فقد حققته الشيوعية، وربيبتها الاشتراكية الثورية.

وانخفاض مستوى المعيشة والحرمان من طيبات الحياة هو ما يشعر به كل من يزور روسيا أو الصين أو غيرها من البلاد الماركسية، وهو ما أكدته الأرقام والإحصاءات الرسمية(١).

(١) وقد أذاع مكتب الإحصاء التابع للأمم المتحدة منذ سنوات قريبة إحصاء رسميًا عن متوسط الدخل السنوي للفرد في بعض دول العالم على النحو الآتي:

الولايات المتحدة كندا	(١٤٥٣) دولارًا	أي حوالي (٥٥٠) جنيهًا
سويسرا	(٧٤٩) دولارا	أي حوالي (٣٠٠) جنيه
السويد	(٧٨٠) دولارا	أي حوالي (٢٩٠) جنيه.
بريطانيا	(٧٧٣) دولارًا	أي حوالي (٢٦٠) جنيها
الدانمراك	(٦٨٩) دولارًا	أي حوالي (٢٥٥) جنيهًا
أستراليا	(٦٧٩) دولارًا	ى حوالي (٢٤٠) جنيها
بلجيكا	(٥٨٢) دولارًا	أي حوالي (٢٣٥) جنيهًا
هولندا	(٥٠٢) دولارًا	أي حوالي (٢١٠) جنيهات
فرنسا	(٤٨٢) دولارًا	أي حوالي (١٨٠) جنيهًا
تشيكوسلوفيكيا	(٣٧١) دولارًا	أي حوالي (١٤٠) جنيه.
روسيا	(٣٠٨) دولارات	أي حوالي (١١٠) جنيهات =

والسر في هذا التخلف الإنتاجي والانخفاض المعيشي في بلاد الاشتراكية الأم ليس راجعًا إلى سوء أو فساد في التطبيق، بل يرجع إلى طبيعة النظام نفسه الذي يحرم التملك، ويقتل الطموح والمواهب، ويحطم الآمال والدوافع الفردية، ولا يجعل للفرد قيمة أو حرية في الإنتاج أو الاستهلاك.

وهذا يؤدي حتمًا إلى انحطاط عام في الإنتاج -كما وكيفا- يجعله دائمًا أدنى درجة من الإنتاج الرأسمالي الذي تمده الحرية بوقود لا ينطفئ، وغذاء لا ينقطع.

وهذا التخلف الإنتاجي عن النظام الحر هو ما اعترف به زعماء الشيوعية أنفسهم، ويحاولون التخلص من آثاره يومًا بعد يوم بالابتعاد عن حقيقة المذهب الماركسي والاقتراب من الأنظمة التي أنكروها من قبل.

٦- **وأخيرًا:** نرى الماركسية في مصادرها الأصلية لا توجه عنايتها إلى الفقراء والضعفاء والعاجزين من فئات المجتمع المحتاجة إلى الرعاية والمعونة، إنما توجه كل همها إلى طبقة «البروليتاريا» أي إلى العمال والفلاحين لتتخذ منهم أداة لقلب نظام المجتمع، وهذه الفئات الأخرى، ولكن ما نصيب العجزة والأرامل والشيوخ وذوي العاهات البدنية والعقلية في المجتمع الماركسي الذي لا يعطي أحدا إلا بمقابل، وفي نظير عمل، ويسير وفق فلسفة: «من لا يعمل لا يأكل»؟

إن نصيب هؤلاء ـ إن كان لهم نصيب هو الفتات الممزوج بالمن والأذى(١).

الخلاصة:

والخلاصة مما ذكرنا: «أن الإسلام يعتبر الفقر مشكلة تتطلب الحل، بل آفة خطرة تستوجب المكافحة والعلاج، ويبين أن علاجه مستطاع، وليس محاربة للقدر ولا للإرادة الإلهية».

=	بولندا	(٣٠٠) دولارًا	أي حوالي (١٠٥) جنيهات
	المجر	(٢٦٩) دولارًا	أي حوالي (١٠٠) جنيه
	الصين	(٢٧) دولارًا	أي حوالي (١٠) جنيهات

نقل هذه الإحصائية الأستاذ ماهر نسيم في كتابه (النظام الشيوعي).

(١) لم نعرض هنا لموقف الاشتراكية الماركسية من الدين، وإنكارها له، وسخريتها به، واضطهادها لكل دعوة إليه، بناء على فلسفتها المادية الجاحدة الملحدة واكتفينا هنا فقط بنقد نظرتها إلى الفقر وعلاجها لمشكلة الفقراء.

وهو يرفض نظرة الذين يقدسون الفقر، ويرحبون بمقدمه، ويعدون الغنى ذنبًا عجلت عقوبته.

ويرفض نظرة الذين يعدون الفقر قدرًا محتومًا، لا مفر منه، ولا علاج له إلا الرضا والقناعة.

ويرفض نظرة الذين يقتصرون في علاج الفقر على جانب الإحسان والتصدق الاختيارى وحده.

وهو كذلك ينكر نظرة الرأسمالية المطلقة إلى الفقراء وحقوقهم على الأغنياء وعلى الدولة، ويتجاوز بعلاجه الترقيعات التي أدخلتها الرأسمالية المعدلة وما شابهها من أنظمة.

كما يرفض بشدة نظرة الذين يحاربون الغنى وإن كان مشروعًا، والملكية وإن كانت حلالاً، ويرون علاج الفقر في تحطيم طبقة الأغنياء، وإيقاد تنور الصراع بينهم وبين الفقراء، وسائر الطبقات الأخرى.

الإسلام يرفض هذه النظرات المتطرفة الحائدة عن الصراط المستقيم، الجانحة إلى الإفراط أو التفريط، ويتقدم في علاج مشكلة الفقر بخطوات إيجابية، ووسائل عملية واقعية، نوضحها فيما يلي من فصول الكتاب.

****